محاضرة:

قضية عمود الشعر

تمهيد:

ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة (عمد) قوله:

فلان طويل العماد إذا كان منزله معلما لزائريه. وفي حديث أم زرع: زوجي رفيع العماد؛ أرادت عماد بيت شرفه، والعرب تضع البيت موضع الشرف في النسب والحسب. والعماد والعمود: الخشبة التي يقوم عليها البيت. وأعمد الشيء: جعل تحته عمدا. والعميد: المريض لا يستطيع الجلوس من مرضه حتى يعمد من جوانبه بالوسائد أي: يقام. وفي حديث الحسن وذكر طالب العلم: وأعمدتاه رجلاه أي: صيرتاه عميدا، وهو المريض الذي لا يستطيع أن يثبت على المكان حتى يعمد من جوانبه لطول اعتماده في القيام عليها، وقوله: أعمدتاه رجلاه، على لغة من قال أكلوني البراغيث، وهي لغة طيئ. وقد عمده المرض يعمده: فدحه؛ عن ابن الأعرابي ؛ ومنه اشتق القلب العميد: يعمده: يسقطه ويفدحه ويشتد عليه. قال : ودخل أعرابي على بعض العرب، وهو مريض فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أما الذي يعمدني فحصر وأسر. ويقال للمريض معمود، ويقال له: ما يعمدك؟ أي: ما يوجعك.

ويمكن في هذا السياق الاعتماد على موازنة الآمدي بين أبي تمام والبحتري، وكذا نظرية عمود الشعر عند المرزوقي.

1- عمود الشعر عند الآمدي (ت 370ه):

ألّف الآمدي كتابا وازن فيه بين البحتري وأبي تمام، وقد كان البحتري ينسج على منوال السابقين، وكان أبو تمام يميل إلى البديع وغموض المعاني. ويمكن أن نستشف مقومات عمود الشعر من خلال هذه الموازنة. وأن من مال إلى البحتري هم الكتاب والأعراب، والشعراء المطبوعون، وأهل البلاغة. وأما من مال إلى أبي تمام في غموض المعنى، ودقته، وفلسفة الكلام، فهم أهل المعاني، والشعراء أصحاب الصنعة. ولعل البحتري في اتباعه خطى الأولين كان شاعرا أعرابي الشعر، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ، ووحشي الكلام؛ فهو بأن يقاس بأشجع السلمي، ومنصور النمري، وأبي يعقوب المكفوف الخريمي وأمثالهم من المطبوعين أولى.

وفي الغلو الذي وجد عند أبي تمام كلام كثير قيل عند أنصار الاتباع، وفي ذلك يقول الآمدي – الذي لا يريد أن يفصح عن رأيه في الخصمين لأنه مجرد موازن بينهما - :" ولأن أبا تمام شديد التكلف، صاحب صنعة، ويستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم، لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة، فهو بأن يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه – أحق وأشبه".

وفي الإشادة أيضا بمنهج البحتري التعبيري، " قال صاحب البحتري: فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه إليه، وصار استكثاره منه وإفراطه فيه من أعظم ذنوبه، وأكبر عيوبه، وحصل للبحتري أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة، مع ما نجده كثيرا في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة، وانفرد بحسن العبارة، وحلاوة الألفاظ، وصحة المعاني، حتى وقع الإجماع على استحسان شعره واستجادته، وروي شعره واستحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم، فمن نفق على الناس جميعا أولى بالفضل، وأحق بالتقدمة".

2-عمود الشعر عند المرزوقي (ت 421هـ):

يستطيع الباحث في الموروث النقدي أن يتلمس فضل المرزوقي في بلورة و صياغة نظرية عمود الشعر فمن " السهل أن يعثر الباحث على البذور الأولى لنظرية عمود الشعر لدى كثير من نقاد العرب و البلاغيين الأوائل، ابتداء من بشر بن المعتمر إلى الجاحظ فابن قتيبة، فقدامة فالآمدي، فابن طباطبا، وغيرهم، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يقدمها لنا في صورتها الواضحة، إلى أن جاء المرزوقي وصاغها على نحو يعز نظيره ضمن مقدمة تناول فيها أيضا بعض القضايا النقدية الأخرى، ولعل اختياره للحديث عن هذه النظرية قبل أن يستهل شرحه لحماسة أبي تمام لم يكن وليد الصدفة، بل كان عن وعي، واستيعاب لمشكلات نقد الشعر، ولا سيما وهو يعد العدة لتفسير موروث فني من الشعر القديم جرى أصحابه على سنة عمود الشعر القديم أو ما يعرف بطريقة العرب، ثم قدر أن تكون هذه الاختيارات من صنيع شاعر كبير، يمثل رأس مذهب جديد اتهم أصحابه بالخروج على طريقة العرب..."

" فإذا كان الأمر على هذا، فالواجب أن يُتبيّنَ ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب، ليتميز تليدُ الصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث، ولتُعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه، ومراسم إقدام المزيفين على ما زيفوه، ويُعلم أيضا فرق ما بين المصنوع والمطبوع، وفضيلة الأتيّ السمج على الأبيّ الصعب"

ويحدد المرزوقي عناصر، ومقومات نظرية عمود الشعر على النحو الأتي:

1_ شرف المعنى و صحته، ويرى المرزوقي أن عيار ذلك " أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جَنْبتا القَبول و الاصطفاء، مستأنسا بقرائنه، خرج وافيا، و إلاّ انتقص بمقدار شوبه ووحشَتِه" .

2_ جزالة اللفظ واستقامته، ويرى المرزوقي أن عيار ذلك " الطبع والرواية والاستعمال، فما سلِم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم، وهذا في مفرداته وجملته مُراعًى، لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامّها ما لا يوافقها عادت الجملةُ هجينا".

3_ الإصابة في الوصف: وسبيل تقدير ذلك في اعتقاد المرزوقي" الذكاء وحسن التمييز، فما وجدناه صادقا في العُلوق مازجا في اللصوق، يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه فذاك سيماء الإصابة فيه".

4_ المقاربة في التشبيه: ويرجع المرزقي تمييز ذلك إلى: الفطنة وحسن التقدير، فأصدقه ما لا ينتقض عند العكس، وأحسنه ما أُوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه اتشبيه بلا كلفة، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبّه به وأملكها له، لأنه حينئذ يدلّ على نفسه ويحميه من الغموض، والالتباس".

5_ التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن وعيار ذلك "الطبع و اللسان، فما لم يتعثر الطبع بأبنيته و عقوده، ولم يتحبّس اللسان في فصوله ووصوله، بل استمرا فيه واستسهلاه ، بلا ملال ولا كلال، فذاك يوشك أن تكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة تسالما لأجزائه و تقارنا، وألا يكون كما فيه:

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه لسانُ دعيٍّ في القريض دخيل

وكما قال خلفٌ:

وبعض قريض الشعر أولاد عَلّة يكُدّ لسان الناطقِ المتحفّظِ

6_ مناسبة المستعار منه للمستعار له: ويرجع المرزوقي " عيار الاستعارة الذهن و الفطنة، وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبه و المشبّه به، ثم يكتفي فيه بالاسم المستعار لأنّه المنقول عمّا كان له في الوضع إلى المستعار له".

7_ مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتصائها للقافية حتى لا منافرة بينهما: و سبيل ذلك وعياره في نظر المرزوقي" طول الدربة ودوام المدارسة، فإذا حكما بحسن التباس بعضها ببعض، لا جفاء في خلالها و لا نبوّ، ولا زيادة فيها ولا قصور، وكان اللفظ مقسوما على رُتب المعاني: قد جُعل الأخص للأخص، و الأخس للأخس، فهو البريء من العيب. وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر، يتشوّفها المعنى بحقه واللفظ بقسطه، وإلا كانت قلقة في مقرّها، مجتلبةً لمستغنٍ عنها".

هذه هي مقومات عمود الشعر التي عدها المرزوقي أساس الشعر، والتي من دونها لا تحصل البراعة، والجودة، ولا يكتمل بناء القصائد.